

روح المعاني

وجدب أو جذب ومرض أو عقوبة وبلاء يطيروا بموسى ومن معه أي يتشاءموا بهم ويقولوا : ذلك إلا بشؤمهم وأصل إطلاق التطير على التشاؤم على ما قال الأزهري إن العرب كانت تزجر الطير فتتشاءم بالبارح وتنمين بالسائح وفي المثل من إلي بالسائح بعد البارح قال أبو عبيدة : سأل يونس رؤية وأنا شاهد عن السائح والبارح فقال : السائح ما ولاك ميامنه والبارح ما ولاك مياسره وقيل : البارح ما يأتي من جهة الشمال والسائح ما يأتي من جهة اليمين وأنشدوا : زجرت لها طير الشمال فإن يكن هواك الذي تهوى يصبك اجتنابها ثم إنهم سموا الشؤم طيرا وطائرا والتشاؤم تطيرا وقد يطلقون الطائر على الحظ والنصيب خيرا أو شرا حتى قيل : إن أصل التطير تفريق المال وتطهيره بين القوم فيطير لكل أحد نصيبه من خير أو شر ثم غلب في الشر وفي الآية إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة فإن الشدائد ترقق القلب وتذل العرائك وتزيل التماسك لاسيما بعد مشاهدة الآيات وقد كانوا بحيث لم يؤثر فيهم شيء منها بل ازدادوا عتوا وعنادا وتعريف الحسنة وذكرها بأداة التحقيق كما قال غير واحد لكثرة وقوعها وتعلق الإرادة بأحداثها بالذات لأن العناية الألهمية اقتضت سبق الرحمة وعموم النعمة قبل حصول الأعمال وتنكير السيئة وذكرها بأداة الشك لندورها وعدم تعلق الإرادة بأحداثها إلا بالتبع فإن النعمة بمقتضى تلك العناية إنما تستحق بالأعمال .

والزمخشري بين الحسنة بالخصب والرخاء ثم قال في تعليل ما ذكر : لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها وقال صاحب الكشف : ذلك إشارة إلى أن التعريف للعهد الخارجي التقريري بدليل أنه ذكر في مقابلة قوله سبحانه : ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين وقوله : لأن الجنس الخ أي جنس الخصب والرخاء وفيه مبالغة أي إنه لكثرة الوقوع كأن الجنس كله واجب الوقوع ولهذا لا يزال يتكاثر حتى يستغرق الجنس وقوله : وإما السيئة الخ في مقابلة ذلك دليل بين على إرادة هذا المعنى فلا تخالف بين كلاميه ولم يرد بالجنس العهد الذهني وهذا مراد صاحب المفتاح وبه يندفع ما توهمه صاحب الإيضاح انتهى وفيه تعريض بشيخه الطيبي حيث حمل الجنس على العهد الذهني وقال ما قال والبحث طويل الذيل فليطلب من شروح المفتاح وشرح التلخيص للعلامة الثاني وحواشيه وقوله سبحانه وتعالى : ألا إنما طائرهم عند الله إستئناف مسوق من قبله تعالى لرد مقالتهن الباطلة وتحقيق للحق في ذلك وتصديره بكلمة التنبيه لإبراز كمال العناية بمضمونه أي ليس شؤمهم إلا عند الله أي من قبله وحكمه كما قال ابن عباس وقال الزجاج : المعنى ليس الشؤم الذي يلحقهم إلا الذي وعدوا به من العقاب عنده لا ما ينالهم في الدنيا وقال الحسن :

المعنى إلا إن ما تشاءموا محفوظ عليهم حتى يجازيهم الله تعالى به يوم القيامة وفسر بعضهم الطائر هنا بالخط أي إنما حظهم وما طار إليهم من القضاء والقدر بسبب شؤمهم عند الله وقرأ الحسن إنما طيرهم وهو اسم جمع طائر على الصحيح لأنه على أوزان المفردات وقال الأخفش هو جمع له وروى عن قطرب أن الطير يكون واحدا وجمعا وكذا الطائر وأنشد ابن الأعرابي : كأنه تهتان يوم ماطر على رءوس كراءوس الطائر ولكن أكثرهم لا يعلمون .

. 131

- ذلك فيقولون ما يقولون وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم للإشعار بأن